الفصل الثاني

الفلسفات المعاصرة

- الشرق والفلسفة المعاصرة
- لا شأن للفلسفة المعاصرة بالتربية الأخلاقية
- الاسلام (عناية الاسلام بالعلم)
- عناية الاسلام بتوازن المجتمع
- عناية الاسلام بالضمير
- الخلقية الدينية او الضمير الدينى
- مضمون الرسالة الاسلامية
- الاحتفاظ بشخصية المجتمع عند الاعتداء عليه
- الروحية المعاصرة
- لماذا وجدت الفلسفة المعاصرة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفلسـفات المعـاصرة

• الشرق والفلسفة المعاصرة :

الفلسفة المعاصرة السائدة فى الشرق الآن ليست فلسفة أصيلة فيه ، ولا منبثقة من حاجات وضرورات الحياة فيه . هى فلسفة أوجدها الغرب ودعت اليها ظروفه الخاصة ، وبعد ما وجدت فى الغرب قسمت مجتمعه الى مجتمعات ، وأثارت فيه بين مجتمعاته حربين عالميتين ، وتوشك أن تثير الثالثة ، واذا وقعت فلا منجاة للبشرية كلها من آثارها المدمرة .

الفلسفة المعاصرة فى الشرق **هى فلسفة الواقعية أو المادية** ، وجدت فى **أوروبا** فى القرن التاسع عشر ، وازدهرت فى النصف الثانى منه ، وابتدات تثمر ثمرتها فى محيط التوجيه الانسانى فى النصف الأول من قرننا العشرين . وهى وان كانت ذات سيادة على التفكير الا أنها لم تسلم لها هذه السيادة تماما بدون مقاومة من التفكير الانسانى نفسه ، ولكن من زاوية أخرى غير الزاوية التى تطل منها ــ كما سيتضح بعد .

والفلسفة الواقعية أو المادية هى الفلسـفة التى **تغفل شأن العقل واستقلاله** ، كمصدر لمعرفة موثوق بها ، كما تغفل شأن التراث الثقافى الماضى الذى كونته تعاليم الدين ، أو قام على أساس من البحث النظرى الصرف ، وفى مقابل اغفال ما تغفل من شأن العقل وتعاليم الدين معـا ، **تعنى بالحس وتثق بالحواس كل** الثقة فى تحصـيل المعرفة الانسـانية . وموضوع الحواس هو المشاهد أو ما هو « واقع » فى عالم الانسان ، وما هو مادى فيه . ومعرفة الحواس هى اذن معرفة الواقع أو المعرفة المادية ، والفلسفة الواقعية هى الفلسفة الحسية أو المادية . تقف بالمعرفة عند حد ما تدركه العين وتسمعه الأذن وتلمسه الأيدى وتحس به بقية الحواس . وتثق بالمعرفة الحسية ثقة قوية اذا كانت مع ذلك وليدة الاختبار والتجربة . وتزداد هــذه الثقة اذا كان الاختبار والتجربة قائمين على اسـاس من استخدام المقاييس الآلية الدقيقة والعمليات الرياضية البحتة ، وروعى فيها اختلاف الظروف العديدة التى من شأنها أن يكون لها تأثير .

والمعرفة الناشئة عن استخدام المقاييس الآلية والعمليات الرياضية البحتة ، هى التى أخذت اسم « العلم » فى الوقت المعاصر ، وهى التى تدعو اليها الفلسفة الواقعية أو الفلسفة المادية ، على أنها الشىء الذى يجب أن يؤمن به الانسان المعاصر ، ويتخذه الها بدلا من اله الأديان فى الماضى . ولذا يصح أن يقال : ان الفلسفة المعاصرة هى فلسفة العلم وفلسفة الدعوة اليه .

والمعرفة التجريبية التى أخذت مفهوم العلم ساعدت على تحسين ما اخترعه الانسان فيما مضى من آلة ، كما عاونت الانسان المعاصر على اختراع أنواع جديدة منها ، فى مجال الصناعات المختلفة . وتقدمت بذلك الصناعة ، وعن طريق التقدم الصناعى ارتفع مستوى الحضارة المادية للانسان . وبارتفاع مستوى الحضارة المادية ارتفع شأن العلم ، وارتفعت قيمة الفلسفة المعاصرة بالتالى . وبالارتباط الوثيق بين قيمة الفلسفة المعاصرة ، وهى الفلسفة الواقعية ، وقيمة العلم فى مجال الصناعة ، وقيمة ارتفاع مستوى الحضارة المادية عن طريق استخدام العلم فى تحسين الآلة أو اختراعها — خلا مكان التقدير من قيمة الأخلاق والمستوى الانسانى المهذب ، وركزت العناية كلها على التقدم فى النظرة الواقعية والبحث العلمى الرياضى التجريبى الآلى لرفع مستوى الحضارة المادية ، دون اقامة وزن للسلوك الأخلاقى أو للتهذيب فى تصرف الانسان .

وبهذا لم تغفل الفلسفة المعاصرة القيم الأخلاقية والسلوكية فحسب ، بل شجعت على التخلص من المعايير التى وضعها المجتمع الانسانى فيما قبل القرن التاسع عشر للسلوك الأخلاقى وتصرف المجتمع الرفيع . وطالبت بالتقدمية وبالنظرة الواقعية فى ضوابط القيم الأخلاقية ومقاييسها . وقصدت بذلك الى أن المقاييس الاخلاقية يجب الا يكون لها استقرار ذاتى ولا ثبات مستقل ، وانما يجب أن تكون تابعة للنظرة الواقعية والتقدم العلمى الصناعى . ومعنى ذلك أنه كلما تقدم المجتمع تقدما علميا وتقدم فى مجال الصناعات وأمعن فى النظرة الواقعية — كلما كان سلوكه الانسانى فى نظر الفلسفة المعاصرة أوفق وأمثل ، وكلما كان أدخل فى معنى التقدمية والتطور .

وبهذا تبعت القيم الأخلاقية النظرة الواقعية ، وهى أساس الفلسفة المعاصرة ، ومالت هذه الفلسفة الى أن تعتبر الانسان آلة أو شبه آلة يخضع للتقدم العلمى والتطور الصناعى : على معنى أنه كلما كان الانسان اكثر اختراعا للآلة ، واكثر تجاربا فى البحث العلمى — كلما كان ذا مستوى انسانى رفيع مهذب ، وكلما كان ذا خلقية فردية واجتماعية عاصمة من الزلل فى التصرف ، أو من استهداف الشر فى المجتمع الانسانى .

ومنطق هذا الثالوث : النظرة الواقعية — العلم التجريبى الميكانيكى — التطور فى الصناعة — اذن يؤدى حتما الى عدم الرغبة فى الشر وتوجيه كل ما يخترع الانسان لخدمة البشرية ورفاهيتها : ذلك لأنه ربط بين التقدم فى هذه المجالات وتقدم الانسان فى انسانيته . ولكن واقع الأمر انه لا صلة بين تحكيم النظرة الواقعية ، وتقدم البحث العلمى التجريبى ، وتطور الصناعة من جانب ، وبين تقدم الانسان فى انسانيته من جانب آخر . لأن تقدم الانسان فى انسانيته يتوقف على توجيه ما فيه من طاقات واستعدادات ، كالغرائز والادراك ، توجيها يجعل الانسان نفسه ذا تهذيب وذا تعاون مع غيره فى المجتمع ، وذا مشاركة وجدانية تتحول الى قوة دافعة نحو الخير والاحسان . وتنمية استعدادات الانسان الفطرية الغريزية والشعورية ، وتوجيهها هذا التوجيه يرتبط فحسب بتهذيب الغرائز أولا ، وابعاد العواطف عن الأحكام والتقديرات ثانيا . وتهذيب الغرائز انما يكون عن طريق كسب العادات الحسنة ، والبعد عن الحزبية والعواطف فى الأحكام . والدقة فى التقدير تكون بالتروى وبانتزاع النفس من شهواتها ورغباتها الخاصة . وللعادات الحميدة المكتسبة لها دخل كبير فى ابعاد رغبات الانسان الخاصة فى مجال حكمه وتقديره .

ولا شأن للنظرة الواقعية المادية بكسب العادات الحسنة ، كما انه لا شأن للتقدم فى اختراع الآلة وتطور الصناعة فى ابعاد العواطف والانفعالات فى أحكام الانسان وتقديره ، ولذلك يبقى الفرق واضحا بين التربية والعلم ، أو بين التقدم العلمى والصناعى فى مجتمع ما ، وحسن توجيهه على نمط انسانى رفيع .

● **لا شأن للفلسفة المعاصرة بالتربية الأخلاقية :**

واذا كانت الفلسفة المعاصرة ، وهى الفلسفة الواقعية المادية وما لها من صلة بالعلم والتقدم الصناعى ، لا شأن لها بالتربية كتوجيه للانسان فى معنى انسانيته — فانه غير **مأمون من الانسان فى المجتمع صاحب الفلسفة المعاصرة ، أن يستخدم تقدمه فى البحث العلمى وتطوره فى مجال الصناعة لابادة الانسان واهلاكه ، بدلا من** وضعها فى رفع مستواه ورفاهيته ، والمجتمعان الحديثان : الاشتراكى والرأسمالى ، وكلاهما يقدر الفلسفة المعاصرة قدرها ويزهوبالعلم كمايزهو بالصناعة — لا يرى العالم منهما اليوم، وسوف لا يرى منهما فى غد ، الا تسخير البحوث العلمية والتطور الصناعى فى سبيل الاعداد للاهلاك والتدمير . وما ينفق فى كلا المجتمعين على البحث العلمى والتطور الصناعى للتدمير والاهلاك ، كان يمكن أن يعود على البشرية جميعا ، وعلى أفراد المجتمع الانسانى كله بفائدة مادية فى رفع مستواه ، بجانب فائدة الهدوء والاطمئنان .. والشعور بالأخوة فى الانسانية.

هذان المجتمعان مهددان بالفناء .. وكلاهما يهدد الآخر ، وهما يهددان غيرهما بالافناء . وليست هناك قوة اخرى كابحة أو موجهة للعلم والتطور فى الصناعة وجهة الخير العام .

ونخلص من هذا الى أن الفلسفة المعاصرة احرزت نجاحا فى التقدم العلمى ونجاحا آخر لم يعرفه التاريخ من قبل فى تقدم الصناعة ولكنها لم تحرز أى نجاح فى تقدم الأخلاق والسلوك الانسانى ، ولا فى ايجاد الضمير، الذى يعتبر القوة الذاتية فى الانسان التى تدفعه الى استخدام امكانياته وطاقاته فى سبيل الخير والابتعاد عن الشر . بل ربما لا تعرف هذه الفلسفة فارقا بين الشر والخير . لأن الشر والخير من المعانى الأخلاقية التى لا تقر ثباتها وبقائها ، وانما ننظر اليهما كشىء فرعى وتابع لما ينشأ عن التقدم العلمى أو التطور الصناعى .

أخفقت الفلسفة المعاصرة اذن فى خلق توجيه أخلاقى ، وفى خلق خلقية أو ضمير يدفع الانسانية نحو العمل الانسانى ، أى نحو الأخوة والتعامل فى الانسانية ، أو نحو تقدير الانسان . وهذا هو النقص الذى يلازم هذه الفلسفة . وفى واقع الأمر أن هذا النقص كان نتيجة لغلو الفلسفة فى تقييم النظرة الواقعية والتجارب الآلية والرياضية . لأن هذا الغلو ركز القيمة كل القيمة فيما يدرك بالحس وينشأ عن التجارب المادية كما سبق أن ذكر ،

ويلغى كل اعتبار لمعرفة او توجيه لا يخضع لتجربة الانسان المادية . ولذا الغى اعتبار المثل والقيم الرفيعة فى حياة الانسان كما الغى رسالة الدين فى توجيه الناس نحـــو الله ، ولو انها أدركت أن الله هو مركز الكمال فى الوجود ، وأن السعى اليه هو سعى نحو الكمال ، وان عبادته هى تقرب من الكمال فى تصرف الانسان لأدركت أن عبادة الله لا تعوق النظرة الواقعية ولا تعوق تقدم العلم ولا التطور الصناعى ، انما هى شىء مستقل بذاته يأتى بما لا تأتى به الفلسفة المعاصرة ، وهى الفلسفة المـادية الواقعية وحدها .

والمجتمعان الاشتراكى والراسمالى ، وكلاهما يؤمن باله العلم واله الصناعة وكلاهما ينكر اله الناس ورب الناس جميعا — وان كان أحدهما يعلن هنا الانكار فى غير خفية والثانى ينكره بالتطبيق لا بالقول — فوق أنهما فقدا الضمير كقوة ذاتية دافعة للانسان فى مجال التقدير والتقييم — فان احدهما يفترق عن الآخر بأن الفرد فى المجتمع الاشتراكى يدفع الى الانتاج بعامل الخوف والرهبة من سلطة القانون ، بينما الفرد فى المجتمع الراسمالى يدفع الى الانتاج بعامل الجشع والطمع والأنانية . اذ المجتمع الأول — وقد سلب أفراده ما يملكون ولم يجعل من أهدافهم تحصيل الملك او تنميته — لم يكن له بد من أن يدفع أفراده الى العمل والانتاج بسلطة الاقناع ، وبجانبها سلطة القانون . ولأن المجتمع الثانى ، وهو المجتمع الراسمالى — لم يضع حدودا لحرية الفرد فيما يملك وفيما يتصرف من أجل تحصـــيل الملك وتنميته ، بل قد شجع على الفردية واستغلال الأنانية .

ولذا بدا فى المجتمع الاشتراكى أن هناك تعادلا بين الأفراد ، **بينما بدا فى المجتمع الراسمالى عدم التوازن والتعادل . وما بدا من تعادل فى المجتمع الاشتراكى لا يعبر عن حقيقة** ، لأن افراده جميعا لا يملكون حتى يقال ان هناك تعادلا أو عدم تعادل وليست لهم حرية فيما يعملون حتى يقال ان هناك تعادلا ايضا فى مجال حرية العمل . اما طغيان الفجوة بين طبقات المجتمع الراسمالى فهى تعبر عن حقيقة واقعية فيه ، نتيجة لسيطرة الفردية والأنانية وهنا ترابط المجتمع الاشتراكى ، ترابط مصطنع أو من خارج عن ذوات الأفراد . أما المجتمع الراسمالى ، وهو المجتمع الأنانى الفردى ، فقلما يكون هناك حديث عن ترابط فيه .

***

اتضح الآن أن قيمة الفلسفة المعاصرة فى جانب العلم والتطور الصناعى، وليس لها قيمة ما فى جانب الضمير والدفع الذاتى للانسانى . كما تبين انها لم تصل بالمجتمع الاشتراكى الى أن يكون ذا ترابط بالمجتمع الرأسمالى الى تقليل الهوة بين طغيان الرأسمالية واستغلال من ليسوا من أصحاب رؤوس الأموال .

واذن هناك نقدان لضمير الفرد وعدم توازن حقيقى للمجتمع . وهذا وذاك كان من مستلزمات الفلسفة المعاصرة ، أو بعبارة أدق ، كان من مستلزمات الغلو والتطرف فى تقدير النظرة الواقعية ، وتقييم التجـــارب الحسية الآلية .

***

● **عناية الاسلام بالعلم :**

أما الاسلام فليس معاديا للعلم ولا للتجربة الحسية الآلية التى يقوم عليها ، وليس معاديا للصناعة ولا للتطور الصناعى . هو يدفع الى الأمرين معا دفعا قويا . يقول الله تعالى : **« قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين »** (١) .. **« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ... »** (٢) **« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور »** (٣) .

فحث القرآن الكريم المؤمنين به على اجـــراء الاختبـــار والامتحان للأحداث الماضية حتى يستخلصوا منها العبرة ، كما حثهم على النظر فى السماء والأرض حتى يقفوا على ما فيهما من قوى وانسجام بينهما ، فيشهدوا بذلك على الخالق الذى خلقهما ، وكما حثهم على السير فى الأرض والتنقيب عما فيها من مصادر الثروة ليضمنوا لأنفسهم الرزق ، بعد أن أخبرهم بأنهم

---

(١) الأنعام : ١١ .
(٢) يونس : ١٠١ .
(٣) الملك : ١٥ .

ممكنون منها ، وان لهم سيادة عليها . وكل هذا يدفع المؤمن بالاسلام الى أن يختبر القضايا ويجرى من التجارب ما يشاء ليصل الى حكم دقيق كما يدفعه إلى احكام النظر ليس فقط وقت نزول القرآن ، وانما على الدوام بعد ذلك وفى كل جيل من أجيال المؤمنين ، الى كشف طبيعة السماء وطبيعة الأرض ، وكما يدفعه الى الاستمرار فى الكشف عن مواطن الرزق فى الأرض وهى عديدة وليست وقفا على الزراعة وحدها ، ولا على الثروة الحيوانية القائمة على سطح الأرض ، وانما ما فى باطنها قبل ما فوق ظاهرها . هذا ما يقوله القرآن هنا كما يقول فى آية أخرى : « **وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** » (١) . وكما يقول فى آية أخرى : « **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس** » (٢) . فكما جعل للانسان الأرض ذلولا ومكنه منها ، وجعله ذا سيادة عليها ، ينتفع بالسير فوقها والتفتيش عما فى باطنها سخر له البحر وجعله أيضا مصدر ثروة وقوة ، ثروة تعينه على البقاء ، وقوة تعينه على الاستمرار فيه ، وجعله أيضا ذا قوة وبأس عن طريق اعلامه وارشاده الانسان الى الحديد ، كمادة الصناعة وكرمز لقوة المادية .

***

● **عنايته الاسلام بالضمير :**

الاسلام اذن لا يعادى العلم بمعنى البحث التجريبى ، بمعنى الدقة فى النتائج ، ولا يعادى التطور الصناعى كمصدر لتمكين الانسان وقوته . لا يعادى سيادة الانسان على الأرض اليابسة ولا على مائها ولا على هوائها . بل يدفعه كما سبق أن ذكر الى تحقيق هذه السيادة على ذلك دفعا قويا . وانما يعادى شيئا واحدا ، **يعادى الشر ، يعادى الشيطان** . وليس الشيطان الا مصدر الاساءة للانسان ، الاساءة فى صورتها الخفية ، والاساءة فى صورتها العنيفة ، وهى الابادة والاهلاك . ولذا طلب الخلقية من الانسان بجانب طلبه للسيادة عن طريق البحث فى المعرفة . طلب من الانسان أن يكون ذا خلق وأن يكون ذا اتجاه حسن فى سلوكه .. طلب منه ذلك على أساس أن يكون الدافع اليه هو ذاته وليس أمرا خارجا عنه . ومن هنا

---

(١) النحل : ١٤ .

(٢) الحديد : ٢٥ .

عنى بـ « الضمير » أى بتكوين القوة الخلقية فى الانسان . عنى بانشائها وبتنميتها . وذلك عن طريقين : **الطريق الأول تكوين معنى الخشية من الله فى نفسه . الطريق الثانى التعود على العمل الحسن ، وهو العمل الخير .**
وفى تكوين معنى الخشية من الله فى نفس الانسان ربط الاعتقاد بالجزاء فى الآخرة بالاعتقاد بالله ، وجعل الايمان بالبعث وبالجزاء بعده أمرا ضروريا لوصف الانسان بأنه مسلم ومؤمن بالله . أما تعويد الانسان بالسلوك المستقيم ، وهو السلوك الخير ، فقد بصر الانسان بما سماه الحلال والحرام ، وبما سماه الواجب والمكلف به . وما طلبه من واجب هو ما فيه تحقيق الخير فى السلوك . وما طلب تركه من حرام هو ما فيه ابعاد للشر أو مكافحة للشيطان . ثم بجانب تنوير الانسان بالحلال والحرام والواجب والمكلف به كانت العبادات . وهى ممارسة الانسان لتجارب خيرة فى حياته تدفعه دفعا عن طريق تكوين العادة الى السلوك الخير المنشود . فالصلاة والصوم والزكاة أنواع من العبادة يمارسها الانسان ليبقى مع الله فى صلته به ، وليبقى مع اخوانه فى المجتمع على صلة بأنهم اخوانه ورفقاؤه ، وبأن تبادل العون أمر مطلوب لا مفر منه .

واذا عنى الاسلام بتكوين الخلقية فى الانسان وبتكوين الضمير الدينى ، وهو القوة القائمة على الخشية من الله ، فانه يعنى بضابط يحول دون أن يتبعه علم الانسان ، وان تتجه سيادته فى الكون الى الافناء والتخريب . وما يعنى به اذن هو كعاصم يعصم الخير عن أن يشوبه شر . يعصم العلم والسيادة والقوة عن أن تستخدم فى غير صالح البشرية عامة .

ووراء عناية الاسلام بتربية الضمير كضابط لتوجيه الانسان نحو الخير **يعنى باستقرار المجتمع . ويرى هذا الاستقرار فى التوازن وفى العدل بين طبقاته . لا يراه فى منع التملك وتحصيل الملكية الفردية ، ولا يراه فى طغيان الرأسمالية ، وانما يراه فى توجيه غريزة الملك بحيث لا تتحول الى الجشع والطمع والاستغلال .** واذا ما تهذبت غريزة الملكية فأصبح المالك غير جشع وغير طامع عرف حد الملكية نفسيه ولما تقتضيه حاجة غيره ، وسعت نفسه الى أن يلبى حاجة الغير بفضلة نشاطه فى السعى نحو تحصيل الملكية . وهذا معناه أن يعطى ليسد حاجة غيره فى صورة من صور العطاء ، بعد ما يقف عند الحد الذى تسد به حاجته . ولذا كان فرض الزكاة فى الاسلام كواجب محتم مقدمة لما سماه « الاحسان » . فالنفس اذا تعودت

بحكم الفرض والالزام على التنازل عما تملك فانها تتنازل فيما بعد عما تملك ايضا عن طريق الاختيار والرغبة بدلا من الفرض والالزام . وعندئذ يتحقق الاحسان . واذا أحسنت في المال فستحسن أيضا فيما تملك من جوانب اخرى ، ستحسن فى العلم ، والجاه ، والقوة ، وتعطى من كل ذلك ما يعين صاحب الحاجة على العلم ، والجاه ، والقوة .

***

● **عناية الاسلام بتوازن المجتمع :**

وهنا يكـون التعاون في المجتمع قائما على **اختيار بدلا من الزام** ، ويكون متعددا الجوانب بدلا من جانب واحد . وعندئذ يكون الغنى والفقير متعادلين على معنى أن ليست **هناك فجوة من الشحناء والبغضاء** والحقد والكراهية بين الغنى والفقير . **والمجتمع الاشتراكى عندما منع الملكية** الفردية وأراد بذلك أن يحول دون البغضاء والكراهية التى يسببها طغيان الرأسمالية ، لم ينزع البغضاء والكراهية من نفوس الأفراد . فقد وجه هذه البغضاء وهذه الكراهية الى النظام الذى فرض عليهم ذلك ، بدلا من أن كانت متجهة من نفس فرد فقير الى فرد غنى .

ولكن الاسلام عندما يريد أن يحول الالزام الى اختيار ، يحول الزام الاعطاء الى الاختيار فيه ، أى الى الاحسان — عندما يريد ذلك يريد أن ينبثق كل تصرف للفرد من حريته واختياره لا من اكراه وقسره عليه .

وهنا الفرد فى المجتمع الاسلامى فرد حر ، وحر فى تعاونه مع الغير ، وحر فى ازالة الفجوات بينه وبين غيره . وهذه الحرية ميزة ثالثة للاسلام كنظام بجانب ميزتيه الأخريين السابقتين ، وهما ميزة تكوين الضمير الدينى أو الخلقية الدينية ، وميزة الحث على المعرفة للسيادة والقوة .

واذا قلنا ميزة الاسلام فى حرية الفرد فلأنه **يرى أن الفرد هو القاعدة التى يؤسس عليها المجتمع** ، وليس المجتمع هو الذى يخلق الفرد ، والمجتمع الحر هو اذن الذى يقوم على قاعدة من الأفراد الأحرار المختارين . واذا قلنا ميزة الاسلام فى تربية الضمير الدينى فمعنى ذلك ميزته فى مستوى الانسانية . لأن الانسان صاحب الضمير هو ذلك الانسان الذى يفصل بين حق نفسه والواجب عليه لغيره ، ويعرف حد نفسه وحرمة غيره ، ثم لا يتعدى

بما له الى ما لغيره . وذلك هو مستوى السمو او مستوى النضوج فى الانسانية . واذا قلنا ميزته فى المعرفة والسيادة فليست المعرفة التى يريدها ولا السيادة التى يتبعها هى المعرفة للافناء ، ولا السيادة للاهلاك ، وانما المعرفة للبناء والسيادة للبقاء . .

وشتان بين انسان يتصرف تصرفا منبثقا من حريته الشخصية ، وانسان آخر مدفوع الى العمل بعامل الخوف والرهبة ، كما فى المجتمع الاشتراكى ، او بعامل الجشع والاستغلال كما فى المجتمع الرأسمالى ، وشتان بين انسان له مستوى الانسانية فى السلوك والتصرف ، وانسان آخر يؤمن بقوة العلم ولا يؤمن بقوة الخلق . ويؤمن بقيمة التطور فى الصناعة ولكنه يكفر بهدف الخير ومصلحة المجتمع الانسانى كله .

ان الاسلام ليس سلبيا فى الحياة . وانما هو نظام للقوة . ولكن فقط القوة المتجهة للخير وللنافع .

***

● **الخلقية الدينية او الضمير الدينى :**

اذا كانت الوحدة فى الايمان بالله هى هدف المجتمع الاسلامى ، وفى الوقت نفسه هى العامل الأساسى فى تكوينه — فان الخلقية الدينية او الضمير الدينى عامل فى بقاء هذا المجتمع ، وعامل فى تماسكه وتعاونه .

الخلقية الدينية هى استطاعة نفسية تتكون عند المؤمن بالله يصدر عنها تصرفات لها طابع الانسجام مع تعاليم الرسالة التى جاء بها صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام ، وهى اذن كما تقوم على الايمان بوحدة الله تقوم ايضا على الايمان برسالة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما جاء فيها ، وهناك عامل آخر فى تكوينها يضاف الى هذين العاملين ، وهو الايمان بالجزاء فى الآخرة . والايمان بالآخرة ، وما تم فيها من جزاء يبعث الحيوية واليقظة باستمرار فى ان تؤدى الخلقية الدينية وظيفتها من العمل طبقا لما آمن به الانسان . وفروع الايمان الثلاثة : الايمان بوحدة الله والايمان بالرسول وبما انزل عليه من وحى هو مضمون رسالته ، والايمان باليوم الآخر وما يقع فيه من جزاءات تذكرها فاتحة البقرة ، فى قوله تعالى : « **الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه ، هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة**

ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون » (١) .

فوصف القرآن هنا الذين يؤمنون بهذه الأنواع الثلاثة بأنهم هم المتقون وهم الذين على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون الناجحون .

فالايمان بالغيب فى مقدمته الايمان بوحدة الله ، لأنه « **لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** » (٢) . والايمان بما انزل هو الايمان بالوحى والرسالة الالهية والمعرفة بالآخرة والايمان بها فى صورة مؤكدة . وفى سورة النساء يعبر القرآن الكريم عن هذه الفروع الثلاثة من الايمان تعبيرا آخر ، فيطلب الايمان بها ثم يصف من يكفر بها بأنه قد ضل ضلالا بعيدا : « **يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل ، ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالا بعيداً** » (٣) .

وهذه الخلقية الدينية التى تقوم على عناصر الايمان الثلاثة ، وهى التى تدفع الى حسن السلوك ، والى الاستقامة فى المعاملة ، والى التعاون والتآخى بين الأفراد . ودفعها الى ذلك دفع ذاتى ، لا يحتاج الى محرك خارجى ، ولا الى رقابة خارجية . اذ السلطان على الفرد عندئذ هو الاعتقاد الذى يحمله المؤمن بين جنبيه . والفرق بين المؤمن الذى يحمل فى نفسه القوة الدافعة الى العمل المستقيم والتعاون مع الغير وبين القانون الذى يضعه المجتمع ويفرضه بقوة الحراسة ، وهى القوة التنفيذية .. الفرق هو أن سلطان القانون وما يصحبه من قوة تنفيذية خارج عن الانسان . والانسان فى المجتمع المدنى الحديث وهو المجتمع صاحب القانون الوضعى وصاحب السلطة التنفيذية يعمل بدفع هذه القوة الخارجة عنه . ولو تهاون هذا المجتمع تطبيق القانون يوما مـا ، أو خفت رقابة السلطة التنفيذية فان الفرد يتهاون بدوره فى اداء ما كان يحتم عليه القانون أداءه وما كانت السلطة التنفيذية ترقبه منه .

---

(١) البقرة : ١ — ٥ .
(٢) الأنعام : ١٠٣ .
(٣) النساء : ١٣٦ .

واذن المجتمع الذى لا يعتمد على قوة ذاتية دافعة فى أفراده — كالخلقية الدينية — يتوقف العمل الجماعى فيه على قوة السلطة التنفيذية ، وعلى دقة مراقبتها لتنفيذ القانون الذى وضع لهذا المجتمع . والدولة الحديثة فى المجتمعات الحديثة تتحمل عبئا ثقيلا فى سبيل الحصول على مثل هذه القوة التنفيذية ، وعلى مثل هذه الدقة فى طرفيها .

وفرد المجتمع الحديث يشعر دائما وأبدا بأنه مسوق ومدفوع بقوة القانون ، ويشعر كذلك بأن حريته محدودة واختياره محدود لأنه شبه مجبر على ما يفعل ويؤدى من عمل . بينما الفرد فى المجتمع صاحب الخلقية الدينية كالمجتمع الاسلامى فى نظام تكوينه — لا يشعر بمثل هذا الضيق النفسى . بل يشعر بأنه هو الذى يدفع نفسه وانه لذلك حر فيما يندفع اليه .

والحرية الفردية على هذا النحو فى المجتمع صاحب الخلقية الدينية عامل فى البناء وعامل فى اتقان العمل . لأن الحرية فى العمل والدفع الذاتى نحو الفعل تصحبه دائما رغبة ، وبجانب الرغبة متعة كذلك . ولذلك حاول بعض الأخلاقيين المثاليين فى المجتمع الأوروبى فى القرن الثامن عشر أن يضع خلقية ذاتية تقوم على فكرة : « أداء الواجب لذات الواجب » وشاعت هذه الخلقية المثالية فى الشعب الألمانى على الخصوص ، وعرفت هذه الفكرة بفكرة « كانت » أو بالواجب الخلقى . ومع انها خلقية دافعة نحو العمل من ذات الانسان دون رعاية للقانون الوضعى وما يصحبه من سلطة تنفيذية — فانها تفترق عن الخلقية الدينية التى يريدها الاسلام للمجتمع الاسلامى ، والتى هى أساس لتماسك المجتمع الاسلامى ، وتعاون افراده . لأنه مهما كان الأمر فلا يغيب عن أذهاننا أن أساس القوة الخلقية هو الاعتقاد بالله ، وأن أساس الخلقية المثالية هو تصور عمل الواجب من الانسان للانسانية وشتان بين قوة تعتمد على الاعتقاد بالله ، وأخرى تقوم على تصور الانسان للانسانية . . فالاعتقاد بالله من شأنه أن يبقى أو أن يطول أجله على الأمد ، بينما تطورات الانسان مهما كانت فانها تخضع للعوامل التى يتأثر بها الانسان ، ويسهل عندئذ أن يتغير تصور الانسان من لون الى لون آخر .

هذه الخلقية الدينية التى تقوم على **العناصر الثلاثة للايمان : الايمان بوحدة الله ، وبرسالة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وباليوم الآخر** — اذن قوة مثمرة فى أن يحسن الانسان فى سلوكه وأن يحسن فى تعامله مع

غيره . واذا أحسن الانسان فى سلوكه وفى تعامله مع غيره لم يكن التعاون امرا ممكنا بين الأفراد فحسب ، وانما كان نتيجة حتمية بينهم : بل ستؤدى الى الشعور بالأخوة وايجاد الألفة القائمة على المحبة : وهنا يكون التساند والتماسك .

***

• مضمون الرسالة الاسلامية :

وبما أن الايمان بوحدة الله الذى هو عنصر فى تكوين الخلقية الدينية هو فى واقع الأمر ايمان بالتحرر من الخرافة والاعتقادات الباطلة والذلة والمهانة ، وايمان بالمستوى الرفيع فى الانسانية ، وهو مستوى العزة والكرامة — فالايمان بالرسول عليه الصلاة والسلام ليس فى واقع الأمر ايمانا بشخصه كانسان ، وانما ايمان به كصاحب رسالة وكحلقة فى تبليغ وحى الله الى الناس ، واذا كان مضمون هذه الرسالة هو تخطيطا لسلوك الفرد ولحدود التعامل بين الفرد والفرد فى المجتمع ، فالايمان بالرسول عندئذ وبرسالته هو اتباع لتنفيذ مضمون هذه الرسالة ، أى لتنفيذ حدود الاستقامة فى السلوك وخطوط المعاملة بين الأفراد .

واذا رجعنا الى مضمون هذه الرسالة وما رسمته من حدود وتخطيطات ، فسنجد أن ما صنعته فى ذلك **يهدف الى التعادل والتوازن بين ثنائية الفرد وبين الفرد والفرد فى المجتمع من جانب اخر ،** اذ الفرد — وان كان فى مظهره وحدة واحدة — هو فى واقع أمره يتكون من جانبين متقابلين أو متنازعين : يتكون من الحكمة التى توحى اليه بالاعتدال ومن الهوى الذى يوحى اليه بالنظر فى الخروج عن حد الاعتدال ، يتكون من عقل وجسم ، وكل منهما له اتجاهاته . وهنا تجد رسالة الاسلام فى هذه الدائرة ، وهى **دائرة الفرد** ، لم تنكر اتجاها من هذين الاتجاهين ، وانما ما حددته فى ذلك من شأنه أن يكفل التوازن بينهما : **« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، أن الله لا يحب المفسدين »** (١) فهذه الآية وحدها ترى منها أن الاسلام يقر طبيعة الانسان على أنها طبيعة مادية روحية ، على أنها طبيعة واقعية مثالية ، بينما لا يحول بينه وبين الدنيا والاستمتاع بها ، وهذا ما يتصل بالجانب المادى

---

(١) القصص : ٧٧.

اذا به يطلب من الانسان أن يكون فى استمتاعه بهذا الجانب وفى تحصيله الدنيا قاصدا وجه الله ، ومعنى وجه الله فى ذلك انه لا ينحرف بالدنيا الى الفساد والاعوجاج ، اى لا يتخذ مما يحصل عليه من جاه الدنيا ومالها وسيلة لاثارة العبث والفساد فى المجتمع ، وهذا معنى قول الله تعالى : « **ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين** » .

اما فى دائرة المجتمع : اى فى دائرة علاقة الفرد بالفرد فان الاسلام وضع نظاما للاسرة وهى اقل وحدة من وحدات المجتمع . وضع نظاما للزواج وللزوجية ، اى لاشراك فردين فى حياة واحدة لغاية واحدة . ونظامه فى هذا لا يقضى على فردية الاثنين ، ولا يطلب صهر أحدهما فى الآخر ، لانه يعلم أن الخصائص الفردية وهى ما لكل فرد ، باقية لا يمكن ان تفنى ولا أن تذهب فى فرد آخر . وكل ما طلبه فى هذا الشأن هو أن يكون هناك انسجام وتعادل بينهما لا يطغى أحدهما على الآخر ، ولا يستهين احدهما بالآخر ولايذل أحدهما الآخر . وانما يسير كل منهما جنبا الى جنب كما تسير الأجزاء المتناسقة فى وحدة واحدة . ومن هنا جعل لكل من الطرفين فى الزوجية حقوقا وواجبات : « **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة** »(١) .

فالمماثلة فى الحقوق والواجبات اذن قائمة بين الاثنين . اما هذه الدرجة التى تذكرها هذه الآية وتجعلها خصيصة او مشيرة فى جانب الرجل ، فليست الا تلك القوامةالتى تشير لها الآية الأخرى : « **الرجال قوامون على النساء** »(٢) وليست هذه القوامة هى عبارة عن سلطة وسيادة ، وانما هى عبارة عن قيادة وتوجيه . ولم يجعلها الاسلام فى جانب الرجل الا لأن الرجل بحكم تكوينه فى طبيعته ذو مسئولية فى الحياة الخارجية . لا تستطيع المراة بحكم طبيعتها أن تقوم بها كقاعدة وانما على سبيل الاستثناء . اذ طبيعة المراة بحكم انها تحمل وتلد ، هى فى رعاية حملها وفى جانب ولدها وهى من اجل ذلك لا تتفرغ للحياة الخارجية كما يتفرغ اليها الرجل بحكم طبيعته ، لذلك كان السعى فى حفظ حياة الأسرة وصيانتها امرا يجب ان يتكفل به الرجل ويسئل عنه ، واذا كان وضعه على هذا النحو فمن غير ما شك يجب أن تكون له قيادة وان يكون له

---

(١) البقرة : ٢٢٨ (٢) النساء : ٣٤

توجيه . والحدود الأخرى التى وضعها الاسلام فى معاملة الرجل للمرأة خاصة تمنعه من أن يستغل هذه القوامة أو يسىء الى المرأة : « **الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان** » (١) ، فطلب الاسلام الاحسان فى الابقاء على الزوجة كما طلب هذا الاحسان نفسه عندما يريد أن يفارق الرجل امراته ، والمؤمن صاحب الخلقية الدينية بحكم أنه مؤمن وصاحب خلقية دينية ، لا يكون الا محسنا . لا يستغل ولا يسىء استخدام ما وكل اليه من قيادة وتوجيه . واذن قوامة الرجل هى محض توجيه واخلاص فيه لصالحهما معا .

ولم يشأ الاسلام — لأنه يبقى على فردية الفرد ولا يدع أحد الاثنين ينصهر فى الآخر — أن يجعل الزوج ، بحكم هذه القوامة مستغلا لزوجته . فيما تعطى وفيما تملك ، وفيما تعتقد ، وفيما ترى ، شىء واحد يجب أن تحرص عليه هو ألا تسىء عن طريق ما تملك ، أو عن طريق ما ترى وتعتقد ، الى زوجها .. ألا تتخلف فيما عليها من واجبات ، كما تطلب ما لها من حقوق .

واذا تجاوزنا دائرة الزوجية الى أسرة القرابة فاننا نجد الاسلام كذلك ، يطلب أن يكون هناك توازن وتعادل بين افراد الأسرة الذاتية كما يجب أن يكون هناك توازن وتعادل بين أسرة الزوجية بقول الله تعالى : « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا** » (٢) . الآية .

فطلب الاحسان فى معاملة الأبناء للوالدين ، كما طلب الاحسان فى معاملة أحد الزوجين للآخر . وهذا الاحسان الذى طلبه هنا فى معاملة الأبناء للوالدين ربما نستشف معالمه من الآية الكريمة الآتية الأخرى : « **فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما** » (٣) . وهذا ضرب من الاحسان يمثل أرقى مستوى انسانى فى المعاملة . ومن غير ما شك ما تحمله الوالدان فى سبيل الأبناء يوحى أن يكون موقف الأبناء منهما على ما يطلبه القرآن الكريم .

أما الآباء فى موقفهم من أبنائهم فلم يوص الاسلام الآباء هنا على نحو ما أوصى الأبناء قبل (٤) الآباء . لأن الاسلام يعتمد على العلاقة الطبيعية بين الجانبين ، وهى علاقة قوية من جانب الآباء نحو الأبناء لا يقابلها بمثل

---

(١) البقرة : ٢٢٩ (٢) النساء : ٣٦
(٣) الاسراء : ٢٣ (٤) قبل : بكسر القاف وفتح الباء واللام .

هذه القوة ، علاقة الأبناء نحو الآباء ، وكل ما أوصى به الاسلام ، هنا ألا يفتتن الآباء بالأبناء : يقول الله تعالى : **« انما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم . فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم .. »** (١)

وهكذا ان تركنا أسرة الزوجية وأسرة القرابة الخاصة الى القرابة البعيدة تجد الاسلام ينصح بالتعاطف والتوادد ، كما ينصح بأن يشرك الغنى الفقير فى ماله . يقول الله تعالى : **« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى ... »** (٢)

حتى ما يتصل بالأسرة سواء أكانت أسرة زواج أو أسرة قرابة . فان الاسلام يطلب هذه الرعاية حتى لا يكون هناك بغضاء . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اخوانكم خولكم . أطعموهم مما تطعمون ، والبسوهم مما تلبسون ، ولا تعذبوا عباد الله » .

واذا كانت نظرة الاسلام الى الأسرة فى صورها المختلفة هى هذه النظرة التى تقوم على طلب التعادل والتوازن بين أفرادها — **فالمجتمع الكبير ، وهو المجتمع الاسلامى يطلب فيه أيضا من قبل الاسلام أن يكون هناك تعادل وأن يكون هناك توازن .**

ولم يشأ أن يكون هذا التعادل والتوازن منبثقا من دفع خارجى كما ذكرنا ، وانما أراد أن يكون **مصدره الذات . ومن هنا حث على « الاحسان »** وليس الاحسان هو اعطاء الفضل من مال ، واما الاحسان هو التصرف طبقا لمستوى انسانى مهذب . الاحسان مشتق من أحسن ضد أساء . أحسن فى التصرف ، أحسن فى العطاء . أحسن بالعمل فى الاتفاق ، أحسن فى العلاقة ، أحسن فى رعاية الروابط ، أحسن فى الاقناع ، أحسن فى الستر فى الأعراض ، أحسن فى رعاية الحرمات . كل ذلك الاحسان يطلبه الاسلام . وهذا الاحسان لا يتم مطلقا الا عن خلقية دينية ، الا عن ضمير خلقى . لا يتم عن دفع القانون الوضعى الانسانى . ولا عن رقابة السلطة التنفيذية المصاحبة له .

---

(١) التغابن : ١٥ ، ١٦ (٢) البقرة : ١٧٧

وهنا يكون الايمان برسالة الرسول هو الايمان — كما ذكرنا — باتباع هذه الحقوق العامة ، باتباع هذه الحدود فى معاملة الانسان لنفسه ومعاملته لغيره . والمجتمع ما هو الا انسان وغيره ، فرد وفرد ، ومن هنا يتضح قيمة الايمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وبرسالته وأثرها فى تكوين وتوجيه الخلقية الدينية .

أما الايمان بالجزاء الأخروى ، فانه كما ذكرنا باعث الحيوية فى هذه الخلقة العامل فى استمرار حركتها نحو أهدافها . لأن المعتقد بالله وبرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم اذا اعتقد بالجزاء الأخروى ، فانه سيتذكر فى كل لحظة أن الجزاء واقع لا محالة ، وانه من أجل ذلك لابد ان يعمل فى كل لحظة طبقا لما جاءت به الرسالة ، ولذلك شدد الاسلام كثيرا النكران ، على من جحد البعث واليوم الآخر وما يقع فيه من جزاء .

والاسلام لم يذكر هذه الخلقية الدينية بصريح العبارة ولم يطلبها بهذا النص وانما طلبها فى **صورة العمل الصالح** . لأن العمل الصالح هو نتيجتها وثمرتها فيقول الله : « **ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما** » (١) . « **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا** » (٢) . « **وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم** » (٣) . « **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** » (٤) .

واذا تحدثنا عن الخلقية الدينية أو الضمير الدينى فى المجتمع الاسلامى ، **وازنا بينها وبين القانون الوضعى والسلطة التنفيذية فى توجيه المجتمع ودفعه** الى الاستقامة فى السلوك وحسن التعامل — فاننا لا نريد أن نحط من قيمة القوة التنفيذية والرقابة العامة ، فى المجتمع . انا لا نريد أن نحط من هذا وذاك ، لأن المجتمع مهما استقام أفراده فان من بينهم من سيكون نزاعا الى الشر والافساد والعبث .. بل منهم من سيكون متحديا للقيم الأخلاقية الفاضلة وللمثل العليا وللاستقامة ولصالح المجتمع العام ، ولو قلة . بل ربما فى بعض الأحايين تضعف هذه الخلقية يوما ما فيكثر الفساد والعبث اذا لم تكن هناك سلطة تنفيذية ، ورقابة عامة على المجتمع . والاسلام من

---

(١) طـه : ١١٢ (٢) النسـاء : ١٢٤
(٣) المـائدة : ٩ (٤) النحـل : ٩٧

اجل هذا لا ينكر قيام مثل هذه السلطة ولا وجود هذه الرقابة . وانما يطلبها وينشدها . لأن طبيعة الانسان هى طبيعة الانسان . فيها البـر والفاجر ، وفيها المستقيم وغير المستقيم . وقد سار المجتمع الاسلامى منذ بداية تكوينه فى المدينة على ان تكون هناك رقابة ، وأن تكون هناك سلطة تنفيذية ، وقد كانت درة عمر رمزا لهذه السلطة التنفيذية وهذه الرقابة العـامة .

وكل ما اردناه من حديثنا عن الخلقية الدينية وتأكيدنا لقيامها وضرورتها هو أن يحرص المجتمع الاسلامى أو اى مجتمع آخر على وجود هذه القوة فيه وبقائها ورعايتها . لأنه من صالح المجتمع — كما ذكرنا — أن يقاد أفراده عن طريق الدفع الذاتى ، بدلا من أن يقاد جميع الأفراد عن طريق القانون وسلطته التنفيذية . واذا وجدت هذه الخلقية الدينية ، ووجدت آثارها طبقا للايمان برسالة الاسلام كما صورنا — فان المجتمع الاسلامى عندئذ لايواجه مشاكل يطلب حلها . لأن هذه الخلقية نفسها اذا كانت قوية فى دفعها الى العمل الصالح فانها تكون وقاية من وقوع المشاكل اذ أن مشاكل اى مجتمع انما تنشأ عن النفرة ، انما تنشأ عن عدم الاستقامة فى التصرف وعدم التعاون والتوازن فى التعامل ، انما تنشأ عندما تخفت روح التعاطف وتتغلب الأنانية فتفسد بين الناس ، عندئذ يواجه المجتمع مشاكل : الفرد نفسه يواجه مشاكل مع نفسه ومع غيره ، والأسرة تواجه مشاكل فى علاقة بعضها ببعض ، والزوجة وزوجها يواجهان أيضا بعض المشاكل .. وهكذا وهلم جرا .

ولذلك لم تكن تعاليم الاسلام التى يجب الايمان بها حلا لمشاكل ، وانما كانت وقاية من المشاكل ، وهو عندئذ مجتمع شعاره : الوقاية قبل العلاج .

***

- **الاحتفاظ بشخصية المجتمع عند الاعتداء عليه :**

هذان — الايمان بوحدة الله والخلقية الدينية — عاملان فى تكـوين المجتمع الاسلامى وفى بقائه وتماسكه . وهناك عامل آخر للاحتفاظ بشخصية المجتمع الاسلامى من الاعتداء عليه من خارجه . هذا العامل هو الجهاد فى سـبيل الله ..

obeikandl.com

مبدأ **الجهاد** قصد به الاسلام أمرين :

- **الأمر الأول : أن يبقى المجتمع الاسلامى على اسلامه وعلى ايديولوجيته ونظـــــامه .**
- **الأمر الثانى : هو صيانة النظام الاســـلامى وصـــيانة ايديولوجيته من العدو الخارجى عليه .**

وهذا العدو الخارجى هو ذلك الذى يكفر بهذه الايدولوجية ، ويمعن فى كفرانه بها ويسخر منها ، وهو اذ ينكر على المجتمع الاسلامى ايديولوجيته ونظامه ينكر فى واقع الأمر وجـــوده وقيامه ، ويريد تفتيته وذوبـــانه فى مجتمعات أخرى ، والجهاد ، وهو الدفـــاع عن هـــذه القيم وصيانتها من الاعتداء عليها ، قد يكون دفاعا أدبيا بالرد على ما يوجه الى هذه القيم من انكار أو استهتار : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** »(١) وليس المراد هنا القتال بالسيف ، وانما الغرض منه مقاومة الاستهتـــار والاستخفاف بالقيم الاسلامية ، حتى لا تكون فتنة بين المسلمين بسبب هذا الانكار والاستخفاف والاستهتار ، وحتى لا يكون هناك خوف أو اضطراب وبلبلة بسبب هذا الهجوم الانكارى على القيم الاسلامية .

وقد يكون — وهو ما عرف به — ماديا . وهو اللقاء بالسيف والدفع وبآلة الحرب . **ولكن لرد الاعتداء المادى من نوعه** . ولو استعرضنا آيات القتال لوجدنا أن الله سبحانه وتعالى لم يطلب من المجتمع الاسلامى فى وقت من الأوقات أن يبدأ قتالا أو اعتداء ، وانما كل ما طلبه منه هو رد الاعتداء .. وكان الاسلام كريما محسنا ، وكان انسانيا أيضا فى طلبه رد الاعتداء اذ قصره على تلك الحـــدود التى يعتدى بها المجتمع الاسلامى :

« **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين** » (٢) .

ففى الوقت الذى طلب فيه رد الاعتداء وأن يكون ذلك فى الحدود التى اعتدى بها المعتدى ، علل بأن التزام ذلك هو من ضروب التقوى ، وذكر أن الله مع المتقين .. أى مع الملتزمين حدود الله .

ويمكننا أن نخلص من هذا ، الى أن المجتمع الاسلامى هو مجتمـــع تحررى ، ومجتمع تعاونى ، ومجتمع متوازن متعادل . هو مجتمع يحرص على استقلاله وحفظ كيانه وصيانة وجوده .

***

(١) الأنفال : ٣٩ (٢) البقرة : ١٩٤

الروحيـــة المعـــاصرة

هذا ما بين الفلسفة المعاصرة فى طريقها الى العلم التجريبى والتطور الصناعى ، وبين الاسلام فى دعوته الى القوة والخلق والسيادة . وهناك انجاه آخر يدخل فى صميم الفلســـفة المعاصرة . وهو اتجاه يقوم على مقاومة الالحاد والمادية معا . هو اتجاه الروحية . واتجاه الروحية يقصد به التخفيف من حدة غلو المادية والالحاد معا ، ولكنه اتجاه فى دعوته الى الروحية يريد ان ينصر احدى الكتلتين أو أحد المجتمعين القائمين — وهما المجتمع الاشتراكى والمجتمع الرأســـمالى — على الآخر . **هو يدعو الى الايمان بالله ، ولكن فى دعوته الى هذا الايمان بالله يناضل الشيوعية ، وهى عنوان المجتمع الاشتراكى . فهو لايدعو الى ذات الروحية تقييما لها ، بل الى الحد من نشاط الدعوة الى هذه الشـــيوعية** والوقوف فى سبيلها دون الانخداع بوعودها . **ولذا ترى القائمين على هذا الاتجاه الروحى وتنشيط الدعوة اليه فلاسفة المجتمع الرأسمالى أو الكنيسة المسيحية فى العـــالم الرأسمالى** واذ تقوم الكنيسة بذلك تقوم رغبة فى تأييـــد الجبهة أو الكتلة الرأسمالية ، وصون نفوذها فى مجموعة الشعوب الرأسمالية .

على أن ما يدعو اليه هذا الاتجاه الروحى من الايمان بالله يبقى فى حدود الدعوة أو القول ، يبقى غير محدد . ثم ليس له من نظام تعليمى يسنده كالنظام الذى أتى به الاســـلام فى تحديد جوانب حيـــاة المجتمع الاسلامى وحياة أفراده .

ولهذا يبقى الاسلام متميزا بنظامه وبدعوته الى الايمان بوحدة الله . ويجمع بين ما تنشده الروحية من مقاومة طغيان الالحاد والمادية ، وبين ما يطلبه واقع الأمر من معالجة النقص الذى يشوب المجتمعين الحديثين المتقابلين : الاشـــتراكى والراســـمالى . ويبقى بذلك مثلا لنظـــام معين ولأيديولوجية خاصة ، لا هى الى الاشتراكية ، ولا هى الرأسمالية ، ولا هى الى سلب الأفراد اخص مظاهر غرائزهم ، ولا الى طغيان بعض الأفراد على بعض .

* * *

لمـاذا وجـدت الفلسـفة المعـاصرة

واذا كان الاسلام على هذا النحو ، فالسؤال الذى يدور فى اذهاننا هو : **لماذا وجدت الفلسفة المعاصرة ، وهى الفلسفة الحسية او المادية ، والاخرى المقابلة لها وهى الفلسفة الروحية** ، والجواب **أن ذلك لم ينشأ اصالة فى محيط الاسلام ولا فى الدائرة الاسلامية** كمـا ذكرنا أولا ، **وانما نشأ فى الغرب واستعاره المجتمع الاسلامى** أو قذف به الى المجتمع الاسلامى قذفا ، ثم قبله فريق من المسلمين يدافع عنه ويبشر به . واذا كان قد نشأ بعيدا عن محيط الاسلام فالذين يقبلون عليه ويبشرون به فى المجتمع الاسلامى بعيدون أيضا فى واقع أمرهم عن محيط الاسلام ، بعيدون عنه فى ادراكهم أو بعيدون عنه فى نفوسهم لغاية معينة .

نشأت هذه الفلسفة — كما ذكر أولا — فى المجتمع الأوروبى فى القرن التاسع عشر . وكانت نشأتها نتيجة صراع بين ما للانسان كانسان ، بغض النظر عن قوة اخرى خارجة عنه ، وبين الانسان ، كرسول وكمبشر بقوة أخرى خارجة عن الانسان وذات صلة وثيقة بتوجيهه . نشأت نتيجة صراع بين الفلسفة المثالية الانسانية وبين الاتجاه الالهى فى الكنيسـة الكاثوليكية . وقد كان صراعا مريرا وطويل الأجل .

والفلسفة المثالية او الفلسفة الانسانية تقصد الى الغض من رسالة الوحى ، أو بالأحرى الى الغض من رسالة أولئكم الذين يتحدثون باسـم الوحى وهم رجال الكنيسة . ولم يقصـدوا الى ذلك الا بعد ما عـابوا خطوات الكنيسة فى سبيل توجيهه الفرد والمجتمع الأوروبى . فالكنيسة كانت تملى املاء ما يعتقده الفرد وما يقوله وما يسير فيه ، فى جانب البحث ، والفكر ، والسلوك . وكانت تتخذ من نفسها وسيطا فى تحديد مصـائر الأفراد وفى صلتهم بالله . وكانت تعطى لهم من صور الاعتقاد وتطلب اليهم من أداء الرسوم ما يقف عنده العقل الانسانى مفكرا ومتسائلا : لماذا ؟ . ثم لا يستطيع أن يجيب على تساؤله هذا ولا أن يحصل على جواب له من المختصين بشئون رسالة الوحى ، وهم رجال الكنيسة .. فصـكوك

الغفران . وعقيدة التثليث ، ورسوم كثيرة فى العبادة ، وامتزاج الطبيعة الانسانية بالطبيعة الالهية ، او حلول ما لله فيما للانسان ، كان دائما محل تساؤل من العقل الانسانى الخاضع لايمان الكنيسة .

ولذا نشدت هذه الفلسفة المثالية **الحرية** . نشدت حرية الانسان فى تفكيره ، وحريته فى تخطيط طريق سلوكه ، وحريته فى تحديد مصيره ، وطلبت الغاء اعتبار صلة الانسان بقوة أخرى تسمى ما تسمى من أسماء أو تنعت بما تنعت من صفات . وكانت ترى ان الحرية هى كل شىء .

وجعلت من الانسان سيدا لنفسه وسيدا على ما عداه فى كونه ، خلصته — كما تقول — من الرق فى التأثر بغيره وفى الاندفاع فى طريق لم يرسمه الانسان بنفسه . ومن هنا سميت بالفلسفة الانسانية .

ولأنها عظمت حرية الانسان والقيم الانسانية الاخرى ، وهى قيم تتصل بطاقاته وامكانياته فى الخلق والابداع ، سميت فلسفة مثالية .

ولأنها أنكرت ما عدا الانسان فى وجود الانسان ومحيطه ، واشتبكت فى صراع وفى كفاح مع الكنيسة وتعاليمها . ورمت الكنيسة بالجمود والرجعية ، وباسترقاق الانسان واستذلاله . ورمتها الكنيسة بدورها بالالحاد والكفر والوثنية ، لأنها بدلا من أن تؤمن بالله آمنت بالانسان وباستطاعته فى الخلق والابداع ، وطال الصراع بين الاتجاهين واستغرق القرن الثامن عشر كله .

وجاءت الفلسفة المعاصرة ، وهى الفلسفة المادية الواقعية ، ودخلت فى الصراع مع الفلسفة الانسانية المثالية ومع الكنيسة وتعاليمها . ورمت الفلسفة المثالية بأنها فلسفة خالية من حقائق الواقع ، وأنها جوفاء فارغة لا غنى فيها ، كما رمت الكنيسة وتعاليمها والدين عامة بالرجعية والتخلف والجمود . ونعتت نفسها بالتقدم والتطور . وأمعنت فى تأييد ما نعتت به نفسها وما وصفت غيرها من اتجاه فلسفى أو دينى .

ولكن لكى يخلص الانسان فى الحكم على الاتجاهات كلها التى تشتبك الآن فى صراع بعضها مع بعض ، ولكى يكون مع اخلاصه حقيقا فيما يصدر من أحكام وتقديرات يجب تحديد المفاهيم أولا (١) .

* * *

(١) انظر الفصل الأول .